أعدادها لفساتينك / مجلات الموض ؟ / لا أصدق ؛ / أحقا قلبت زوجك زعيما وهدى / وبنى لك زوجك معلقات ، / يا بلادي ؟

أحقا غناك باجلال / من كان بحرقة غناك / وحقا حدوت الخيل / وساقها بنوك لبعيد المراعي / وما فتحت فاها لقضم / وفتحته لصهيل كترنيم مآذن ؟ / لا أصدق / لا أصدق يا بلادي .

لا لانك شخت : / ففي اغبرار الذوائب وقار / وللتجاعيد فعل قصر عنه الغضوض . / ولا لانك انزويت : / لو أنك اذ تنحت الاضواء عنك / احتضنت المعاهد / او افتتحت المياتم او جمعت التبرعات . / لا يا بلادي : / وكنت اذا لاهواك / وأغني جمالا يتدرج وما يزول ، / وكنت اذا أزورك / وأحرم اذ أزور .

لكنك تكللت مع المشيب بالهوان / ونفضت عنك ذكرى زوجك والشباب / كأنهما غبار على جسمك المعفر . / لكنك أخصيت بنيك / ورأيتهم طأطأوا الرأس لذكراك . / وتمرغت مع هذا وذاك من منحرفي الميول / (وكيف أصدق ما يقال عن ماضيك / يا بلادي / أنا الذي رأيت بيتك وأضواءه الخافتة ؟) / واما أشاح عنك العاشقون / قودت لبناتك / يا بلادي / يا بلادي .

علق توفيق امالا كبارا على امته العربية من المحيط الى الخليج . لكنه تألم وحزن لما رأى القيادة لا تتخذ الخطوات التي اعتبرها الخطوات الصحيحة المؤدية الى تحسين مصير الجماهير . كما أحزنه ايضا ان يرى الجماهير ، وقد فقدت ارادتها تقريبا ، لقد كان توفيق ليبراليا ومفكرا متمردا في وطن رآه يتجه نحو فرض القيود من شتى الانواع ونحو القبول بقيم اعتقد انها تبقي على حالة التخلف . لكنه لم يكن سياسيا ولم يحب السياسة . فهو يقول في القصيدة السادسة والعشرين من مجموعته «ثلاثون قصيدة»:

« رحماك زعيمي ! » / وقبلت أسفل القضبان . / ورماني بضحكة وقال : / « غن ، أكسر القضبان » . / وتنحنحت، أستجر النديب / أستجر الرجاء . / وغنيت وغنيت ، / وتراقص الصوت / ولم توقع له حنجرة، / وغنيت وطيبت لي . / وانتهى الي صوت بعيد : / « كفى ! » / قلت : « ابتعد ايها الشيطان » . / والح : « جئت بالمطرقة » ، / قلت : « بلى ، ولكن / لست ارى القضبان » .

وهكذا يجد توفيق الحرية في الشعر تلك الحرية التي يرى ان مجتمعه يفتقد اليها . ومن خلال الشعر يأمل ان يحول بني قومه ، لا من خلال السياسة . ولقد كان التوجه الرئيسي لمجلته « حوار » لدى عودته الى الشرق الاوسط في العام ١٩٦٢ بعد غياب دام سنوات في اميركه وبريطانيه هو خلق مناخ للمناقشة والحرية الفكرية . ولذلك سميت « حوار » . وفي الافتتاحية الوحيدة التي كتبها لمجلة « حوار » قال :

ونحن نؤمن ان المثقف العربي ، كاتبا كان أو قارئا ، فنانا أو أديبا أو مفكرا ، لا يعيش كما ينبغي أن يعيش الا ان تيسر له مناخ الحرية ، شأنه بذلك شأن المثقف في أي بلد آخر . ونؤمن ان المثقف في تعطش دائم الى مزيد من هذه الحرية ، اللازمة له أكثر من لزومها لاي سواه من أفراد المجتمع ، وان مجتمعات العصر الحديث لم تحقق في مجالات الحرية ما حققته في مجالات العلم والتقدم والحضارة .

لذا فان « حوار » ستعنى عناية خاصة بقضايا الحريات ، وعلى رأسها حرية الثقافة ، حرية التفكير والتعبير والقول والقراءة ، في العالم كله . ستدعو اليها ، وتنبه لها ، وتدافع عنها ، وتقيم المذاهب والنظم على أساس تبني هذه الحريات او تنكرها لها .

لقد حقق توفيق في اثناء اصداره مجلة « حوار » المثل التي أعلن عنهـا في تلـك الافتتاحية ولكنه ما لبث ان اصيب بخيبة أمل ومرارة أدت في النهاية الى اغلاق «حوار» . وفي قصائد الحب « أيضا وايضا » التي حملها اخر اعداد « حوار » مقطوعة يعبر فيها عن حبه للوطن بعد مرارته وخيبة امله ورفضه بقوله(٧):

في سني النفي / أنستني النفي ، / ساعة ساعتين في النهار ، / حفنة من تراب / رافقتني بتجوالي / غير ذات ثقل . / بعدت عن ارضي / حملت ارضي الي . / داعبتها لاعبتها / كحبيبة كمسبحة . / حمتني شددتني / شدتني للارض ، أرضي ، / علمت قدمي التقدم للوراء .